التنبيه في اللغة

د. عبدالفتاح محمد

جامعة البعث- حمص

مقدمة:

لا ريب في أن حال السامع أو الملتقط أو المستقبل أو المخاطَب لا تجري على وتيرة واحدة إزاء تلقي الرسالة، فربما اعتراه ما يجعله لا يتلقاها كما ينبغي، كأن يكون نائماً مستثقلاً أو ساهياً أو متراخياً، أو مُعرِضاً، أو غافلاً، أو بعيداً أو غير هذا.

ومن هنا يعمد المرسِل إلى ما من شأنه أن يجعل المخاطَب مُقبلاً متيقظاً، منتبهاً، ليكون التواصل على أتمّه ويحقق المرسلُ الغاية من الرسالة ويبلغ المراد.

وهذه الأمور الداعية إلى التنبه تتدرج ضمن ما يسمى بوظائف اللغة، ويعود الفضل في الكشف عنها، وتبيانها إلى العالم المعاصر جاكبسون (Jakobson).

والحق أن المصطلح الدال على الوظيفة موضوع البحث لم يستقر على حال بَعْدُ، ذلك أن الكتب التي عُنيت بالحديث عن وظائف اللغة تذكر في مقابل (Conative) مصطلحات ثلاثة في العربية هي:

- **الوظيفة الندائية- ووظيفة إقامة الاتصال- ووظيفة التنبيه** [1].

وبصرف النظر عن مدى شيوع هذا المصطلح أو ذاك، وبصرف النظر عمّا في تلك الكتب من تناقض وتعارض في انتقاء الكلمة التي تترجم المصطلح عن لغته الأصلية، فإنني أميل إلى استعمال "وظيفة التنبيه" لأسباب منها: أن كلمة

"التنبـيه" كلمـة كثيرة الدوران في العربية، وهذا ما سوف تدل عليه النصوص الـواردة فـي هذا البحث مما نطق به أهل العلم بالعربية، ومنها أن "النداء" في العربية مشغول، فالكلمة تطلق ويفهم منها أسلوب معروف في العربية وهو جزء مـن "التنبيه" وعلاقته بالتنبيه علاقة الخاص بالعام، ومنها أن ما يفهم من التنبيه أعمق كثيراً مما يُفهم من إقامة الاتصال.

ومـا بيـن أيديـنا من دراسات يدل على أن وظيفة التنبيه لا تمتلك حدوداً حاصـرة، أو بنـية مسـتقلة، بـل إنها تتداخل مع الوظائف الأخرى للغة مثل التعبـيرية، والمرجعـية، والشـعرية،... وغيرها وهذه كلها تَتَدَغمْ بدورها في وظـيفة أساسـية تؤديها اللغة، فغايتها إنما هي التواصل في إطار المجتمع الذي تنتمي إليه.

وإذا مـا أردنـا أن نسـتطلع بعـض ما قيل عن وظيفة التنبيه في كتابات المعاصـرين نجد أنهم يقولون إنها تظهر في المرسلات التي تتوجه إلى الملتقط لإثـارة انتـباهه، أو للطلب إليه القيام بعمل معين، ويجعلون جملة الطلب ضمن نطاق الوظيفة. (٢)

وربمـا فصّلوا القول فذكروا أن هذه الوظيفة تتجلى في العبارات الدالة على تأكيد الاتصال، أو إبقائه ، أو إيقافه..... وربما أكدوا أن هذه الوظيفة تؤدي دوراً مهمـاً في الخطاب الديني، والسياسي، وفي الأحاديث العائلية والغرامية فيصبح الوجـود فـي أماكن تلك الخطابات والأحاديث، مع الاندماج في الآخرين هَدَفَ الاتصال وغايتَهُ (٣).

ولا يخفى أن ما ذُكِرَ عن هذه الوظيفة لا يتعدى الإشارات.

ولمّا كان الحديث عن وظيفة التنبيه علماً معاصراً، فإن هذا يَفْتَرِضُ أن تكون الدراسات التي تتناول هذه الوظيفة في العربية نادرةً أو معدومة، لكن - والحق يقال- إن للمتقدمين من أهل التفسير والبلاغة والنحو واللغة، شذرات

مفيدة، ولمحات صائبة غير أنها لم تكن مقصودة لذاتها. هذا في القديم أما في الحديث فقد أفرد بعض الدارسين بحثاً تناول فيه الأدوات المفيدة للتنبيه [٤].

والبحث على أهميته ليس كلّ ما يقال عن التنبيه في العربية، بل هو حلقة أولى من حلقات أحسب أنها ليست قليلة، وإني لآمل أن يكون هذا البحث الذي أعده إحدى تلك الحلقات.

دل التقصي على أن للتنبيه في العربية صلة بأساليب كثيرة، لعل أبرزها النداء، والدعاء، والتوكيد، والإشارة، والاستفهام، وأمور أخرى كثيرة، ويهدف البحث إلى دراسة كل أسلوب على حدة بغية كشف جوانب التنبيه فيه، وأكثر ما يجري هذا في ضوء ما ورد في القرآن الكريم، يدفع إلى اتّباع هذا المنهج، أمور منها أن الدراسات التي تتناول القرآن الكريم تفسيرا، وتأويلاً، وبلاغة، ولغةً، وأساليبَ، هي مادة ثرة يمكن الإفادة منها إلى حد بعيد، ومنها التدقيقُ في صحة ما يذهبون إليه من أن وظيفة التنبيه تتجلى تجلياً واضحاً في الخطاب الديني. ومنها أن تتبع التنبيه ضمن السياقات هو أكثر جدوى، وأشدّ حيوية، وأوصل إلى الغرض، وأبين للمراد.

النداء والتنبيه:

النداء لغةً الصوت، أو الدعاء بأرفع صوت، يقال، ندوتُ القوم أندوهم إذ جمعتهم في النادي فتشاوروا وتحدثوا، ومنه قيل للموضع الذي يُفعل فيه ذلك نَديٌّ ونادٍ [٥]. ويمكن التدليل على صلة النداء بالتنبيه من وجوه: منها أن المخاطب كثيراً ما يحتاج إلى تنبيه. ومنها أن تعريف النداء فيه ذكر للتنبيه، فالنداء "تنبيه المدعو، ودعاؤه بأحرف مخصوصة" [٦]، بل إن كلمة التنبيه كثيرة الدوران على ألسنة النحويين عند حديثهم عن النداء وأدواته، من ذلك مثلاً قول سيبويه: "فأما الاسم غير المندوب فينبه بخمسة أشياء"[٧]، وينص في موضع آخر على تسمية حروف النداء بحروف التنبيه فيقول: "..... ولا يكون مكان "يا" سواها من حروف التنبيه

نحـــو أيْ، وهَـــيَا، وأيـــا"[٨] كذلك يُشير ابن جني إلى معنى التنبيه في بعض هذه الحـــروف فـــيقول: "يا في النداء تنبيهاً ونداء، في نحو يازيدُ، ويا عبدَالله" [٩] ثم جـــاء ابـــن يعيش ليقول" أصل النداء تنبيه المدعو ليُقبل عليك"[١٠] وهذه الأقوال تـــؤول إلـــى نتيجة واحدة، وهي أن النداء يحمل في طياته التنبيه، وربما دار في الأذهـــان أن هـــذه الأقـــوال جـــاءت فـــي مـــرحلة مبكرة نسبيا، ولم تكن فيها المصـــطلحات مستقرة، فكان هذا التداخل بين النداء والتنبيه، وهذا إنْ صح إلى حـــد مـــا، فإنه لا يصح عندما تأتي (يا) خالصة للتنبيه دون النداء عندما يليها ما ليس بمنادى، كالحرف، والفعل، والجملة.

بعـــد هـــذا لا بد من أن نقف عند أدوات النداء لنبيّن مدى إفادتها للتنبيه، مسترشدين بأقوال بعض أهل اللغة والنحو:

يا: أصل أدوات النداء، وقد أشار إلى التنبيه فيها غير واحد، قال سيبويه:

"وأما يا، فتنبيه، ألا تراها في النداء وفي الأمر، كأنك تنبه المأمور" [١١] ولا يخفـــى أن سيبويه يُلحّ على معنى التنبيه في "يا" ويجعله بها ألصق، في حين نجد ابـــن جني يؤاخي بين التنبيه والنداء فيها فيرى أنها تكون تنبيهاً ونداء، لكنه يرى أنهـــا تخلـــص أحـــياناً، وتتعين لمجرد التنبيه، يقول: "يا: في النداء تكون تنبيهاً ونـــداء..... وقد تجردها من النداء للتنبيه البتة"[١٢] وأكثر ما يجري الحديث عن دلالة (يا) على التنبيه، فيما يأتي:

عندما تدخل على فعل الأمر، كقوله تعالى: "ألاَّ يَسْجُدوا [١٣] " ويقرر ابن جني أنها جُعلت خالصة للتنبيه في هذا الموضع،، يقول:

"..... كأنه قال: هيا اسجدوا [١٤] فهو يفسر (يا) بـــ (ها) التنبيهية.

عـــندما تدخـــل على الحروف كما في قوله تعالى: " ياليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً" [١٥]، ويكثر ورود مثل هذا في القرآن الكريم [١٦]. كما تدخل

علـــى (رُبَّ) كقولـــه صـــلى الله عليه وسلم: يارُبَّ كاسيةٍ في الدنيا، عاريةٌ يوم القيامة." (١٧)، وكقول جميل:

يـــارُبَّ عارضـــةٍ عليـــنا وَصلَّها بـــالجِدّ تَخْلُطـــه بقـــولِ الهازلِ(١٨)

- وعندما تدخل على الفعل الماضي، كقول الشاعر:

يـــا حـــبّذا جـــبلُ الريانِ مِنْ جَبَل وحـــبذا ساكنُ الريانِ مَنْ كانا(١٩)

- وعندما تدخل على المبتدأ، كقول الشاعر:

يـــا لعـــنةُ اللّـــهِ والأقـــوامِ كلّهـــم والصالحينَ على سِمْعانَ مِنْ جارِ(٢٠)

والـــنحاة مختلفون في دلالة (يا) في مثل هذه المواضع كونها للنداء أو للتنبـــيه، ولو عرضنا لجميع أقوالهم، لضاق بنا المجال (٢١)، وما يعنينا أن بعضهم يرى أنها تدل على مجرد التنبيه، ومنهم ابن جني، يقول: "... فجاء بـــيا ولا مـــنادى معها، قيل: يا في هذه الأماكن جُرِّدَتْ من معنى النداء، وخلَصَتْ تنبيهاً. (٢٢)، ومنهم أبو حيان (ت ٧٥٤ هـــ) الذي يدلل على كون يـــا للتنبيه بقوله: والأصحُّ أن يا في قوله يا ليتنا حرف تنبيه لا حرف نداء والمـــنادى محذوف، لأنَّ في هذا حذفَ جملة النداء، وحذف متعلقه، وذلك إجحاف كثير". (٢٣) فأبو حيان يرفض أن يُحذَفَ من جملة النداء الفعلُ الذي يُقـــدَّر بـــ (أنادي) أو (أدعو) أو (أُنبِّهُ) وأنْ يُحذَفَ المنادى، ولمّا كان ذلك ممتنعاً عنده رأى أن يا خلصَتْ تنبيهاً.

أمـــا باقي أدوات النداء التي لها صلة بالتنبيه فمنها أيا ومعناها التنبيه ويُنادى بهـــا، وتُســـتخدم لـــنداء البعيد والقريب... والمبالغ في تنبيهه وندائه، ولا يجوز حذفهـــا وإبقاء المنادى، ومنها هيا: ومعناها التنبيه، وقيل هي يا أُدخلَ عليها هاء التنبـــيه مـــبالغة [٢٤]، ولـــيس ببعـــيد أن تكون أيا وهيا لغتين، مثل قولهم: أراقَ وهَـــرَاقَ. ومـــنها الهمـــزة وتكون تنبيهاً وينادى بها القريب[٢٥]. وقد تُمَدُّ فيقال: آ وتكـــون تنبـــيهاً ونـــداء، ولا يخفى ما بين القيمة الصوتية لهذه الأدوات وأوجه اســـتعمالها من مناسبة، فلا يمتد الصوتُ إلا بالمقدار الذي يتنبه معه المنادى [٢٦]. وبـــناء علـــى ما تقدم يمكن القول: إن لأسلوب النداء صلة بالتنبيه، وندرك أهمية التنبيه في النداء إذا علمنا أن النداء شيء من لوازم العربية الأصيلة، وهو ألصق ما يكون بالأدب الوجداني، تقرؤه في الرثاء والنسيب، ومواطن أخرى [٢٧].

كذلـــك، إن مَنْ يبحث عن أسلوب النداء في القرآن الكريم يجد أنه يكثر كـــثرةً لافتة، من ذلك قوله: " يابنيَّ اركبْ معنا"[٢٨]. وقوله: "يوسف أيُّها الصِّديقُ أفْتِـــنا" [٢٩] وقوـــله "يا أبتِ لا تعبدِ الشيطان"[٣٠] ولا ريب في أنّ هذه الكثرة تفتح الـــباب لقـــول مستفيض، يضيق المجال عن الخوض فيه، غير أنني سوف أشير إلى بعض طرق النداء، بغية الكشف عن جوانب التنبيه فيها.

يذكـــر الزمخشـــري بإسناد إلى عبدالله بن مسعود أن قوله تعالى: "أيها الناس" منبهة على المكي من الآيات، وأن قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا" منبهة على المدني منها [٣١].

كما يتصف النداء بـــ "يا أيها الذين آمنوا " بخصوصية، وهذه الخصوصية آتية من جهتين، أما الأولى فإن التنبيه في هذا النهج، هو تنبيه مؤكد، وقد أشار الزمخشري إلى ذلك بقوله " وكلمة التنبيه (يريد: (ها)) المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين؛ معاضدة حرف النداء، ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أيُّ من الإضافة". [٣٢] كذلك يشير الشيخ خالد الأزهري (ت ٩٠٥) إلى التوكيد في ها (يا أيها) بقوله:

" ..... وفـــي ها التنبيهية مبالغة وتأكيد[٣٣] وأما الجهة الثانية فإن هذا النهج من النداء يأتي لينبّهَ على أمور عظيمة تلي، وهذا أما أشار إليه بعض أهل العلم، روي عن الحسن البصري (ت ١١٠هـــ) قوله:

"إذ ســـمعتَ الله يقـــول: يا أيها الذين آمنوا فأرع لها سمعك، فإنها لأمر تُؤْمَـــرُ بـــه، أو لنهـــي تُنهى عنه[٣٤]، ثم جاء الزمخشري ليفصّل القول في هذا فـــيقول: "فإن قلت : لَم كثر في كتاب الله النداءُ على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب المبالغة، لأن كل ما نادى الله له عـــباده - مـــنْ أوامره، ونواهيه، وزواجره، ووعده، ووعيده، واقتصاص أخبار الأمـــم الدارجـــة علـــيهم، مما أنطق الله به كتابه - أمورٌ عظامٌ وخطوب جسام، ومعـــان علـــيهم أن يتـــيقظوا لهـــا، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت أن ينادوا بالأكد الأبلغ"[٣٥].

وصـــفوة القـــول في هذه الطريقة من النداء أن درجة التنبيه فيها عالية تتناســـب وأهمية ما يليها من ذكر لأمور لا ينبغي للإنسان أن يغفل عنها. ولكن لـــيس معـــنى هذا أن النداء يجيّرُ للتنبيه فحسب، بل إن فيه أموراً أخرى لا تقل أهمـــية عن التنبيه، منها ما أدركه جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـــ) حين قال: "لذّةُ ما في النداء، إزالة تعب العبادة والعناء." [٣٦].

التنبيه في الدعاء:

يأتـــي الدعاء بمعنى توحيد الله والثناء عليه، ومسألة الله العفو والرحمة، ومسألة الحظ من الدنيا، وهو بمعنى آخر استغاثة وعبادة، وصلته بالتنبيه تُلاحظ فـــي كـــثرة وجود أدوات التنبيه فيه، سواء أكانت حروف نداء أم غير ذلك من أدوات التنبـــيه من مثل (ألا)، كما تُلاحظ في أنّ المتكلم ينبه بعبارات الدعاء إلى فضل المذكور.

وعبارات الدعاء المشتملة على التنبيه منها ما يدعو بخير، نحو: ربنا لك الحمد، اللهم اغفر لنا، وضمن هذا تأتي ألفاظ التصلية والتسليم والرضوان على النبيين والأولياء، وسائر الصالحين[٣٧] ومنها ما يدعو بشرٍّ كقوله تعالى: "ألا بُعداً لثمود" [٣٨].

وإذا كان يصح القول: إن التنبيه يفترض وجود الغفلة في المنبّه، فإن هذا لا يصح في الأدعية التي نتوجه بها إلى الخالق، من مثل: يالله أعنا، ويا مالك الملك أعزنا، ويارب اغفر لنا، فلا يجوز أن يقال في هذا إنه تنبيه للمدعو كما تقدم "ولكنه أُخرج مخرج التنبيه، ومعناه الدعاء لله عز وجل ليُقبل عليك بالخير الذي تطلبه منه، والذي حسّنَ إخراجه مخرج التنبيه، البيانُ عن حاجة الداعي إلى إقبال المدعو بما يطلبه، فقد وقف في ذلك موقف مَنْ كأنّه مغفول عنه، وإنْ لم يكن المدعو غافلاً."[٣٩]

مما تقدم نستنتج أن للدعاء صلة بالتنبيه، ففيه تنبيه على فضل المذكور أو تنبيه على شرّه، كما تكثر في عباراته حروف التنبيه من نداء وغيرها، وأنّ بعض عبارات الدعاء لا يصح أن يقال إنّ فيها تنبيهاً، لكن الصحيح أن يقال: إنها أُخرجت مُخرج التنبيه.

التنبيه والإشارة:

يؤتى باسم الإشارة لدواع كثيرة، منها أنْ يقصد به التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير من أجل تلك الأوصاف بما يُذكر بعد اسم الإشارة، كقوله تعالى: "إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقومُ."[٤٠] فاسم الإشارة **(هذا)** الذي يشار به إلى القريب، ينبه على عظمة القرآن، ويُؤذن بقربه قُرباً لا يحول من دون الانتفاع به، فالهادي قريب، وطرقه أقوم الطرق[٤١].

ويـــرى بعـــض النحويين أن (ها) التنبيهية أثَّرت تأثيراً حاسماً في أسماء الإشـــارة، فغـــدتْ من المعارف بعد أنْ كانت من النكرات، "ذلك أن اسم الإشارة في أصل وضعه، إنما هو اسم مبهم لوقوعه على كل شيء من حيوان أو جماد، وهـــذا يفسِّـــر وجود حرف التنبيه في أسماء الإشارة، كي ينبه المتكلم المخاطَبَ حـــتى يلتفت إليه ، وينظر إلى أي شيء من الأشياء الحاضرة يشير، فغدت بذلك أسماء الإشارة معرفة، ولم تك كذلك قبل دخول حرف التنبيه ها" (٤٢).

ومعلـــوم أن أداة التنبـــيه (هـــا) تدخل على هذا، وهذه، وهذان، وهاتان، وهـــؤلاء من أسماء الإشارة، ويلاحظ أن دخولها يختص بالذي يدل على القريب مـــن أســـماء الإشارة دون الذي يشار به إلى البعيد، وبالتالي هذا يفسر خلو اسم الإشـــارة مـــن (ها) إن اتصلت به لام البعد كما في قوله تعالى: "ذلك الكتابُ لا ريب فيه هُدىً للمتقين". (٤٣) وقد أومأ ابن هشام إلى شيء من هذا حين قال: "ها التنبيهـــية تدخل على الإشارة غير المختصة بالبعيد، بخلاف ثَمَّ، وهَنّا، بالتشديد، وهنالك"(٤٤).

وتدخـــل (هـــا) على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة، كقوله: "ها أنـــتم أُولاء " (٤٥)، فالضـــمير (أنـــتم) فصل بين (ها) واسم الإشارة، كما يجوز الفصل بـــ إنْ الزائدة كقول النابغة:

هـــا إنْ تا عُذْرَةٌ إنْ لم تكن نفَعَت فـــإنَّ صاحبها قَدْ تَاه في البَلَدِ (٤٦)

وتدخـــل أيضاً على أيّ في النداء نحو: يا أيها الرجل، ولو حُذف حرف التنبـــيه فقلت: أي الرجل، لأوهم أنك مستفهم. وتدخل على اسم الله في القسم عند حـــذف الحـــرف، يقال: ها اللّه، بقطع الهمزة ووصلها. وتدخل على أول الكلام نحو: ها إنّ أخاك قادم.

مـــا تقـــدم يدل على أن التنبيه ذو صلة وثيقة بأسماء الإشارة الدالة على القريـــب وقـــد اعـــتلوا لخلو أسماء الإشارة الدالة على البعيد من (ها) التنبيهية بـــتفادي كـــثرة الـــزيادات، ففي (ذلك) و (تلك) اللام والكاف زائدتان، فلو جاز وجودهمـــا مع زيادة الهاء في أول الكلمة لكثرت الزيادات كثرة تثقل الكلمة [٤٧]، ولا أدري كـــيف يصـــح هـــذا الاعتلال في ثَمَّ التي يقول فيها إبن هشام: ثَمَّ اسم يشـــار بـــه إلـــى المكان البعيد، نحو: (وأزلفنا ثَمّ الآخرين)" [٤٨] وهو ظرف لا يتصـــرف ... ولا يتقدمه حرف تنبيه[٤٩] فلا يخفى أنّ لا زيادة فيه، ولعل أغرب مـــن هذا ما ذهب إليه الجوهري من أنهم جعلوا اللام في نحو (ذلك) عوضاً عن (ها) التنبيهية [٥٠].

التنبيه في التوكيد:

يفـــيد التوكيد معاني متعددة، منها التقرير ودفع الشك أو الغفلة.... كذلك تـــتعدد الطرق التي تشتمل على التوكيد، يعنينا من هذه وتلك ما يكشف عما في التوكيد من تنبيه، وأبرز ما استوقفنا: اجتماع حرفي تنبيه أو أكثر، والتكرير.

إن دخـــول حرف التنبيه على مماثله في معناه، هو نوع من توكيد التنبيه وكـــلام العرب ينطوي على جمل من هذا القبيل، كما في اجتماع (يا) و (ها) في نحـــو: يا أيها الرجل، وقد لاحظ سيبويه هذا فقال: "..... ولا يكون هذا في غير الـــنداء، لأنهـــم جعلوها تنبيهاً بمنزلة (يا) وأكدوا التنبيه بـــ (ها)" [٥١] إذن التنبيه مؤكد لاجتماع حرفين، أو لنقل بعبارة أخرى إن (ها) تعضد حرف النداء وتؤكد معناه. [٥٢].

ودخـــول (ألا) على (يا) هو من هذا القبيل أيضاً، وهذه الطريقة تكثر في كلام العرب، كقوله:

ألا يـــا ابـــن الذيـــن فَـــنوا وبادوا أمـــا والله مـــا ذهـــبوا لتبقى [٥٣]

وقول الآخر:

ألا يــا صَبَا نَجْدٍ متى هجتَ مِنْ نَجْدِ فقد زادني مسراكَ وَجْداً على وَجْدِ [٥٤]

وقــد فسر أبو حيان (ت ٥٧٤هـــ) هذه الطريقة مشيراً إلى التنبيه والتوكيد فيها بقوله: "ويا في تلك التراكيب السابقة حرف تنبيه أكدته ألا التي للتنبيه، جاز ذلــك لاخــتلاف الحرفين ولقصد المبالغة في التأكيد"[٥٥]. كما وردت في تمثيل العلمــاء (ألا يــا هؤلاء)[٥٦] وفيه اجتمعت ثلاث أدوات تنبيه هي: (ألا) و (يا) و (ها).

والــتكرير يــراد بــه أن تزيل عن السامع كلّ غفلة، ليكون منتبهاً للذي تكــرر، ويكــثر فــي أسلوب الإغراء والتحذير، وقد اشتمل القرآن الكريم على أساليب من التكرير نعرض لبعضها فيما يأتي:

- كُــرِّرَ فــي سورة الرحمن قوله تعالى "فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان" وهذه الآيــة مــن أبرز ما في القرآن من التكرير الدال على التنبيه، وقد جاء هــذا الــتكرير مراعــياً لمقتضى أحوال المخاطبين، ذلك أن هذه الآية عُنيــت بخطاب المكذبين من الثقلين، ولا شك في أنهم بحاجة إلى شدة في درجة التنبيه تتناسب وما هم فيه من غفلة.

- معــروف أن القــرآن الكريم ذكر في فواتح السور حروفاً مقطعة مثل (الــم، الر، كهيعص)، ولم يقتصر ذكرها على سورة واحدة، بل جاءت مفــرقة في غير موضع، وقد أُوِّل تكريرها على أنه تنبيه على غرض معيــن، وهو إعادة التنبيه على أن القرآن المعجز مؤلف منها لا غير، وذكرها في غير موضع واحد، أوصل إلى الغرض، وأقرُّ في الأسماع والقلوب"[٥٧].

- وكُـــرر في سورة القمر قوله تعالى: "فذوقوا عذابي ونُذُرِ" وهذا التكرير أُوّل على أن فيه تنبيهاً، ذلك أن الآية التي يُجدّدُ ذكرُها عند استماع كل نـــبأ مـــن أنـــباء الأوليـــن يُهدف منها إلى استئناف التنبيه والتيقظ لدى المتلقي، ودفع الغفلة، واستبعاد السهو. (٥٨).

- كذلك إن من التكرير الدال على التنبيه قوله تعالى: "كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين..."(٥٩) فقد جاءت كلا لتفيد الردع والتنبيه على أنه لا ينبغي للمرء أن تكون الدنيا جميع همه، وقوله: (سوف تعلمون) إنذار ليخافوا فيتنبهوا من غفلتهم، وقوله " ثم كلا سوف تعلمون" تكرير لتأكيد الردع والإنذار، وأهل البلاغة يقولون: إنّ وجود (ثم) يدل على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد، كما يقال للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل (٦٠) كذلك إن في قوله "كلا لو تعلمون... "تكريراً للتنبيه أيضاً. وإن تنبيه القرآن يتصف بأنه إنذاري، وقائي، ظاهره الهدى، وباطنه الرحمة، فهو يسبق اليوم الذي يجعل الولدان شِيباً.

- وقـــد يأتـــي التكرير لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزّل هذه المنزلة وتكون غاية المرسِل تنبيه المخاطَب على أمر معين، مـــن ذلـــك قولـــه تعـــالى: "لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصـــحاب الجـــنة هم الفائزون"(٦١)، فـــ" هذا تنبيه للناس، وإيذان للناس لفـــرط غفلـــتهم، وقلة فكرهم في العاقبة، وتهالكهم على إيثار العاجلة، واتّـــباع الشـــهوات كـــأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، والبونَ العظـــيم بيـــن أصحابهما، وأنّ الفوز مع أصحاب الجنة، فمن حقهم أن يعلمـــوا ذلـــك وينبهوا عليه، كما تقول لمن يعقُّ أباه: هو أبوك، تجعله بمـــنزلة مَـــنْ لا يعرفه، فتنبهه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البرَّ والتعطُّف". (٦٢).

- فغايـــة التكرار في مثل هذا التنبيه على خطأ أو غفلة بتذكير المخاطَب بأمـــر ثابت معلوم. ولعل مما يدخل في باب التوكيد والتنبيه ، الأساليب التي نلمح فيها زيادة الإيضاح كما في قوله تعالى: " هوَ اللهُ الذي لا إله إلا هـــو عالمُ الغيبِ والشهادة هو الرحمنُ الرحيمُ، هو الله لا اله إلا هو الملكُ القُدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبِّرُ، سبحان الله عمّـــا يُشركون، هو الله الخالقُ البارئُ المصوِّرُ له الأسماءُ الحسنى."[٦٣] فيمكـــن فـــي غـــير القرآن أن يُستغنى عن الضمير (هو) ولكنه صُرِّح بذكـــره فـــي الآية في عدة مواضع توكيداً وتنبيهاً وزيادة في الإيضاح، ليستقر في النفس مرتبطاً بخبره. [٦٤]

وهكذا نرى أن التنبيه يبتدي في التوكيد الناتج عن اجتماع حرفي تنبيه أو أكثر، أو الناتج عن التكرير.

التنبيه والاستفهام:

لـــم يخـــتلف أهـــل اللغـــة فـــي دلالة (ألا) و (أما) على التنبيه في أحوال مخصوصـــة، لكنهم اختلفوا في كونها بسيطة أو مركبة، وممن قال بأنها بسيطة ابـــن مـــالك[٦٥] ومـــن قال بأنها مركبة الزمخشري[٦٦]، وابن يعيش [٦٧]، وابن هشـــام[٦٨] وهـــؤلاء يرون أن (ألا) مكونة من همزة الاستفهام ولا النافية، كذلك أمَا، فهي مكونة من استفهام ونفي.

وإذا كـــان مـــن الصعوبة بمكان القطع ببساطتها أو تركبها، فإنني أميل إلى التركيـــب، فـــي (ألا) و (أما) لأنهما تشبهان (أليس) و (ألم) ولا خلاف في كون هاتين الأداتين مركبتين.

ويـــبدو أن التركيب يكسب الأداة - غالبا - معنى جديداً مستفاداً، فهذا ما يفهـــم ممـــا ذُكـــر عن الخليل، قال سيبويه: "سألته عن "ألم تر أنَّ اللهَ أنزلَ من الســـماءِ مـــاءً فتصبح الأرضُ مخضرةً[٦٩]، فقال: هذا واجب، وهو تنبيه، كأنّك

قلــتَ: أتســمع أن الله أنزل من السماء، فكان كذا وكذا." [٧٠] فما أفهمه من هذا الــنص أن اجتماع الاستفهام والنفي جعل الأداة (ألم) تدل على التحقيق، وقد عبر عــنه الخليل بكلمة (واجب)، وتدل على التنبيه، ومثل هذا أشار إليه الزمخشري بقوله:

"ألا مركــبة مــن همزة الاستفهام، وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً."[٧١]

ومهمــا يكــن من أمر فإنّ لــ (ألا) و (أمَا) اللتين تدلان على التنبيه بعض الخصائص، ورأيتُ من المناسب أن أشير إليها:

- تأتي ألا في صدر الكلام شأن حروف التنبيه ما عدا (ها) التي تأتي في الصدر والحشو.
- وتُكْسَرُ إنّ بعد ألا وجوباً
- ولا تدخــل إلا على الجمل، ومثلها أدوات التنبيه عدا (ها)، والجمــل بعدها تكون مصدرة بما يُتلقى به القسم من مثل: إنّ، واللام، وحرف النفي، ومثل هذا يقال في أمَا، غير أن (أمَــا) تأتي للحال، و (ألاَ) تأتي للاستقبال، و(أمَا) تكثر قبل القسم في حين تكثر (ألا) قبل النداء.

وخلاصة القول:

قــد نتحصّــل مــن اجتماع الاستفهام والنفي على أدوات يستفاد منها التنبيه والتحقــيق. هــذا ويمكن أن يكون السؤال بما فيه من استفهام فاتحة التنبيه على الغــرض المــراد، ومــا يستشــهد به على هذا قوله تعالى: "وما تلك بيمينك يا

موســـى؟[٧٢] وإنما سأله ليريه عظم ما يخترعه من الخشبة اليابسة من قلبها إلى حية نضناضة[٧٣]، وفي هذا تنبيه على قدرة الله الباهرة، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب والمقلوب إليه [٧٤].

كذلك إن في قوله تعالى: "هل أتاك.[٧٥] تفخيماً للحديث، وتنبيهاً على أنه ليس من علم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحي [٧٦].

التنبيه في أمور أخرى:

يصعب على المرء أن يجعل التنبيه وأساليبه ضمن حدود حاصرة، ونعرض فـيما يأتـــي لأمور تتصل بالتنبيه للتدليل على كثرة أساليب التنبيه وطرقه، كثرة تصعب الإحاطة بها:

١. يجـــري التنبـــيه فـــي العربية بعبارات كثيرة، فنحن نقول: أعرني سـمعك، وانتـــبه إلي، وافهم ما أقول، وعِ ما تسمع..... ولما كان القـــرآن الكريم يحفل بما يثير انتباه السامع، فقد آثرت أن أقف عند مفردات مادتين هما (غفل) و (نذر).

مادة (غفل):

وردت فـــي التـــنزيل مفردات كثيرة من مادة (غفل)، وهي في سياقاتها تدل على معان متعدد، نقف عند اثنين منها لاعتقادنا أنهما يتصلان بالتنبيه على نحو ما:

أمـــا الأول: فإن العربية تدل على المعنى ليس بمفرداته المخصوصة فحسب، بل تـــدل أيضـــاً بكلمات ضدية نُفِيَ عنها معناها الأصلي، ودلت في وضعها الجديد على النقيض تماماً، فإذا أراد الخالق عز وجل أن يبيّن أنه منتبه للأعمال الخبيثة التـــي تصـــدر عمـــن حاد عن جادة الصواب من بني البشر، وأنه محص لها، وحافظها عليهم حتى يجازيهم في الآخرة، ويخزيهم في الدنيا، فإنه يعبر عن ذلك

بقــول: "ومــا اللهُ بغــافلٍ عما تعملون" أو بقوله: "وما ربك بغافل عما يعملون"، ودلالــة مفــردات مادة (غفل) على التنبيه، ليست لأنها مسبوقة بنفي فحسب، بل لأنّ الــباء الزائدة في الخبر المنفي (بغافل) تفيد توكيد المعنى وتقويته، ولأن هذه العــبارات كــررت - بعينها- في مواضع كثيرة من التنزيل [٧٧]، وقد سبق أن عرفنا ما في التكرير من تنبيه وتوكيد.

وهــذه المفردات أكثر ما تأتي بعد إخباره تعالى عما يرتكب الإنسان من شرور، وعما يقترف من آثام، كالقتل، والعدوان، والظلم، والإخراج من البيوت، واتّــباع الهوى، والصد عن سبيل الله..كقوله تعالى واصفاً بني إسرائيل: "ثُمَّ أنتم هــؤلاءِ تقتلون أنفسَكم، وتُخْرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثمِ والعُــدوانِ، وإنْ يــأتوكم أُسارى تُفادوهم وهو مُحرمٌ عليكم إخراجُهم، أفتؤمنون بــبعض الكــتاب وتكفــرون ببعض، فما جزاء مَنْ يَفْعلُ ذلك منكم إلا خزيٌ في الحــياة الدنيا ويومَ القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب، وما اللهُ بغافل عمّا تعملون."[٧٨]، كمــا تأتــي هذه المفردات بعد ما يدل على أن مقاليد الأمور هي بيد الحي القيوم، كقوله في ختام سورة هو: "ولله غيبُ السمواتِ والأرض، وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلّه، فاعبدْهُ وتوكل عليه وما ربُّك بغافلٍ عمّا يعملون."[٧٩] ولعله لا يخفى ما في هذا الخطــاب من بنية عميقة للتنبيه؛ فأكثر الناس هم في غفلة، فهم بحاجة إلى تنبيه، وهــم يخوضــون في بحور من الآثام والشرور، وهم لهذا أحوج ما يكونون إلى التنبــيه أيضاً وهم بذلك مقبلون على الجحيم معرضون عن النعيم، وهم جاهلون أو مــتجاهلون بأن الله متنبه لعباده تنبهاً لا تخفى معه عليه خافية، ثم إنه الرقيب الحسيب.

وأما المعنى الثاني:- فهو يتعلق بالإنس ويصح بالجن لأنهم مشمولون بالخطاب القرآنــي أيضاً، وما تظهره بعض الآيات أن كفة الغفلة راجحة على كفة الانتباه، فهــذا مــا يفهــم من قوله تعالى: "ولقد ذرأنا لجهنمَ كثيراً من الجن والإنس، لهم قلــوب لا يفقهــون بها، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون"[٨٠] وإذا كانت بعض كتب اللغة

تقـول: "غفل الشيء: تركه، وسها عنه"[٨١] وإذا كانت بعض كتب التفسير تقول: "أصـل الغفلـة عـن الشيء: تركه على وجه السهو عنه والنسيان له" [٨٢] فإن صـورة الغـافل ضمن السياق القرآني تتجاوز ما سبق ذكره، فهي صورة حية نابضـة، تـنزل الغـافل مـنزلة هو أهل لها، وتتجاوز منه الظاهر إلى الباطن، والمـادي إلى المعنوي، فغدا الغافل - وقد عطّل حواسه ومداركه- مغايراً لبني جنسـه مـن البشر، بل إنه ينحدر عنهم، ليشبه الأنعام، ويزيدها ضلالة، بجعله نفسـه لغير ما خلقت له، أضف إلى هذا أن السياقات الأخرى التي ورد فيها ذكر الغـافل تـبرزه مكذباً، ظالماً، متكبراً، معرضاً عن آيات الله ومعجزاته، قصير النظر لأنّ علمه مقتصر على ظواهر الدنيا ــ راضياً بالدنيا، مشغولاً بها....[٨٣] وهكـذا يتبيـن مما تقدم أن مفردات مادة (غفل) في القرآن تدل على التنبيه، ولا سـيما عـندما تكـون مسبوقة بنفي، وعندما تصور الغافل على حال يغدو معها أحـوج ما يكون إلى التنبيه، وإن كان ذلك لا يجدي فيه نفعاً لأنه عطل حواسه ومداركه.

مادة (نذر):

يرد الفعل أنذر بمعنى خوّف، وحذّر، والإنذار، الإبلاغ ولا يكون إلا في التخويف، والمنذِرُ: المُعْلِم والمُخَوِّف والمُحَذِّر. [٨٤] وأعتقد أن الدارس لا يحتاج إلـى كبير عناء ليدلل على الصلة ما بين الإنذار والانتباه، بل إنّ الإنذار يتطلب أن يكـون الانتـباه فـي أعلـى درجاته، وخاصة عندما يتعلق بجلائل الأمور وعظامها.

وتأتـي مفردات هذه المادة لتدل على صحة ما سبق ذكره من أن وظيفة التنبيه تتجلى بوضوح في الخطاب الديني ولا سيما في لغة التنزيل، بل إن للتنبيه فـي القـرآن دوراً مهماً، وليس مصادفة أن يكون في أول سورة "الفرقان" قوله تعـالى: "تـبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً"، ويسترعي الاهـتمام، ويلفـت الانتباه وفرة مفردات هذه المادة في لغة التنزيل، فقد ذكرت

فـيما يقـرب من خمسين سورة [٨٥] وتلك المفردات منها ما يؤكد أنّ الإنذار هو هـدف القرآن وغايته وسداه ولحمته، كقوله تعالى على لسان نبيه: "وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به"[٨٦]، "ومنها ما يبين أن الإنذار مهمة أولى للأنبياء، كقوله تعالى على لسان نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم: "وما أنا إلا نذير مبين." [٨٧]، ومنها ما يبين أن الأنبياء والرسل كانوا منذرين في الأمم السابقة، ولكل نذيرها، فهـذا ما يفهم من قوله تعالى: "إنا أرسلناكَ بالحقّ بشيراً ونذيراً، وإن منْ أمة إلا خـلا فيها نذير" [٨٨] لهذا يذهب بعضهم إلى أنّ آثار النذارة باقية في الفترة بين عيسـى ومحمد عليهما الصلاة والسلام [٨٩] وتفيد بعض الآيات بأن من الأمم مَنْ كانَ يلح في طلب النذير، لأنّ هدايتهم مقرونة بوجوده، قال تعالى: "وأقسَموا بالله جَهْـدَ أيمانهم لئن جاءهم نذيرٌ ليكونـنَّ أهدى منْ إحدى الأمم، فلّما جاءَهم نذيرٌ مـا زادهم إلا نفوراً"[٩٠] فهؤلاء الذين اشترطوا لهدايتهم وجود المنذر بالغوا في إعراضهم وصدّهم عندما تحقق لهم ما أرادوا.

ممـا تقـدم يبين أن انتباه الناس إزاء الإنذار والمنذر ليس واحداً، ذلك أن الكثرة منهم لا يجدي فيهم إنذار، ولا ينفع فيهم نذير، وهذا ما يدل عليه أيضاً قوله تعـالى: " لَقَد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون"[٩١] وعدم إيمانهم ناتج عن أن النذر لم تُجْدِ فيهم نفعاً": "وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنْذرهم لايؤمنون".[٩٢]

أمـا صفات مَنْ يتلقى الإنذار بالقبول والرضى- وهم القلة - فهم أولئك الذيـن تمـلأ الخشية قلوبهم، فضلاً عن أنهم يسترشدون بنور القرآن "إنما تُنْذرُ الذيـن يخشـون ربَّهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، ومَن تزكّى فإنما يتزكى لنفسه، وإلى الله المصير"[٩٣].

وأولئك الذين لم ينفع فيهم الإنذار هم أنفسهم الغافلون، وهذا يفسّر أن تكون الكـثرة صـفة في هؤلاء وأولئك ، فإذا كنا قد عرفنا أن الغافل مَنْ عطّل مداركه وحواسـه، فـإن الذين أعرضوا عن الإنذار قد عطلوا أجهزة الاستقبال فيهم، قال تعالى: "قُلْ إنما أُنذرُ بالوحي، ولا يسمعُ الصمُّ الدعاءَ إذا ما يُنذرون". [٩٤]

ولعل مما يجعل الانتباه المرافق للإنذار أشدّ، اقتران الإنذار بشيء مخوف، كما في قوله تعالى: فإن أعرضوا فقُلْ أنذرتكم صاعقةً مثلَ صاعقة عاد وثمود" [٩٥] وقوله: "فأنذرتكم ناراً تلظى"[٩٦]، وقوله:

"إنا أنذرناكم عذاباً قريباً". [٩٧]، فالعذاب ليس كله آجلاً، بل منه العاجل، ومنه ما أصاب بعض الأمم الخالية التي لم تكن تأبه بالإنذار، لم تكن تبالي بما يمكن أن يحيط بها، والتي كانت تكذب بآيات الله، وتُعْرِض عنها، فقوم نوحٍ أغرقوا بماء منهمر، وعاد أخذت بريح صرصر عاتية، وثمود أهلكت بالصيحة، وهي صوت مهلك من السماء، وقوم لوط بادوا بريح عاصفة ترميهم بالحصباء[٩٨]، ويلاحظ تكرار قوله تعالى: "فكيف كان عذابي ونَذرِ "بعد ذكره لما أحاق بكل أمة، وقد سبق أن بينا ما في هذا التكرير من تنبيه.

وهكذا يتبين لنا أن مفردات مادة (نذر) ذات صلة بالتنبيه، لأن المنذَر يفترض أن يكون في أعلى درجات انتباهه، لاقتران الإنذار بالخوف، كما أن مفردات هذه المادة كثرتْ كثرةً لافتة استدلّ بها على أن وظيفة التنبيه تضطلع بدور هام في الخطاب الديني.

٢ - الالتفات:

هو الانتقال بالأسلوب من صيغة المتكلم، أو الخطاب، أو الغيبة إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ، وهي بمجموعها ست حالات، ولعلّ الأصمعيّ هو الذي أطلق عليه الاسم الاصطلاحي " [٩٩]. غير أن بعض أهل العلم يطلق عليه اسم "الاعتراض"، وهو عند آخرين "الاستدراك"[١٠٠]، ومما يعد من الالتفات قول زهير:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانينَ حولاً . لا أبالكَ . يسأم [١٠١]

فزهـير بالـتفاته (لا أبالك)، وهو انتقال من المتكلم إلى المخاطب، أراد أن يجعـل السـامع مـتعاطفاً معه، منتبهاً لما يقول، فالكلام الذي يخصُ إنساناً يلقى العناية منه.

والالـتفات تلويـن فـي الأسلوب، يشبه وجود وردة حمراء بين ورود صـفر، فإنهـا بتمـيزها عمـا سواها تسترعي الاهتمام، وتلفت الانتباه. ولعل الزمخشري من أبرز مَنْ عني بالحديث عن التنبيه الكامن في الالتفات، فهو يرى أن الالـتفات: "قَـنٌّ من الكلام جَزِلٌ، فيه هَزٌّ وتحريك من السامع"[١٠٢]، ويوفق الزمخشري عندما يجد في الانتقال من الغيبة إلى الخطاب درجة عاليةً من تنبيه المخاطب فضلاً عن المشاركة الوجدانية الناتجة عن الاهتمام بأحوال المخاطب، وقـد عبَّر عن ذلك بقوله: "... كما أنَّك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما إن فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصتَ عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالـث، فقلـتَ: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتسـتوي علـى جادة السداد في مصادرك ومواردك، نبهتَهُ بالتفاتك نحوه فضل تنبيه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدتَهُ بالانتقال من الغيبة إلـى المواجهـة هـازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة "[١٠٣] ويخلـص الزمخشري إلى القول في الالتفات إنه "يستفتح الآذان للاستماع، ويهش الأنفس للقَبول. [١٠٤] ومما ورد في لغة التنزيل من الالتفات قوله تعالى: "إنما هو إلـه واحـد، فإيـاي فارهبون"[١٠٥]، بدأ الخطاب بالغيبة (هو) وانتقل إلى التكلم (إيـاي) فهذا أبلغ في التنبيه على الترهيب من فإياه فارهبون. ومنه قوله تعالى: "وقـالوا: اتخـذ الرحمـن ولداً، لقد جئتم شيئاً إداً"[١٠٦] بدأ بالغيبة، ثم انتقل إلى المخاطـبة، وفي ذلك"زيادة تسجيل عليهم بالجراءة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه على عظم ما قالوا"[١٠٧]، ويورد أهل البلاغة والتفسير من شواهد الالتفات التـي وردت في لغة التنزيل، وفي الشعر العربي ما يحتاج البحث فيه إلى مقام أرحب.[١٠٨]

صـفوة القـول : إن الالـتفاب هو الانتقال بالأسلوب من صيغة إلى أخرى ويهدف - في جملة ما يهدف - إلى إثارة انتباه السامع، ودفع الغفلة عنه.

٣- التقديم والتأخير:

يستفاد من التقديم أحياناً معنى التنبيه، فهذا ما يُلاحظ في قوله تعالى:"فَقُلْ تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسَنا وأنفسَكم، ثم نبتهل فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبين."[١٠٩] فقد قدم الأبناء والنساء على الأنفس في الذكر لينبه على لطف مكانتهم،وقرب منزلتهم، وليعلَمْ أنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها.[١١٠]

٤- الكناية:

قد يعمد المتكلم إلى التلميح من دون التصريح، وقد يُطلق الخطاب، ويكون له مدلولان، قريب وبعيد، والثاني منهما هو بيت القصيد، وربما جاء مثلُ هذا الكلام أوقعَ في النفس، وأشد تمكناً من القلب، وأدعى إلى التنبيه، واللجوء إلى هذا الأسلوب له ما يفسّره، كأنْ يكون نص الخطابُ في أمور يُستحيًا من كشفها مثلاً.

ويرى بعض المفسرين أن مما يؤول هذا التأويل قوله تعالى: "إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً، ولي نعجةٌ واحدةٌ، فقال أكفِلْنيها وعَزَّني في الخطاب."[١١١] فالمعنى البعيد للآية- وهو المقصود- هو التحاكم بين داوود عليه السلام، وبين أخيه لا في نعجة، ولكن في امرأة، فتحاكمهم كناية، وكلامهم كناية، وهذا "للتنبيه على أمر يستحيا من كشفه، فيُكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاحُ به، وللستر على داوود عليه السلام، والاحتفاظ بحرمته"[١١٢].

كذلك إن من المواضع التي استعملت فيها الكناية وغرضها التنبيه، قوله تعالى: " ليشهدوا منافعَ لهم ويذكرُوا اسمَ الله في أيامٍ معلومات على ما رزقَهم من بهيمةِ الأنعامِ، فكلوا منها وأطعموُا البائسَ الفقيرَ."[١١٣] فقدْ كنَى عن النحر والذبح بذكرِ اسم الله، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا، "وفيه تنبيه على أن الغرض الأصليَّ فيما يُتقَرَّبُ به إلى الله أنْ يذكر اسمه."[١١٤] ولعل مما يقرب من هذا الذي سبق، الانتباه بشيء على شيء آخر، فقد ذُكر في قصة زكريا عليه السلام أنه كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء[١١٥]،" وقيل لما رأى الفاكهة في غير وقتها

انتـــبه على جواز ولادة العاقر[١١٦]." وفي ذلك محرِّضٌ له أن يدعو الله كي يهب له ذريةً طيبة من زوجه العاقر.

٥- الفاصلة والتنبيه:

تأتي الفاصلة القرآنية، أو يأتي ختام الآية وفيهما تنبيه على شيء معين أحياناً، فقوله تعالى: " وكذلك نجزي المحسنين" [١١٧] تنبيه على أن يوسف كان محسناً في عمله متقيًّا في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم على إحسانه.[١١٨]

ونـــدرك التنبيه في قوله تعالى. "إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب"[١١٩] ولا ســيما أنه به ختم قوله تعالى: "ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فسَلكهُ ينابيع فـــي الأرض، ثم يُخرِجُ به زرعاً مختلفاً ألوانُه،ثم يَهيج فتراه مصفراً، ثم يجعله حطامـــاً "فالآية بدأت بـــ (ألم) وفيه تنبيه على ما بينا من قبل، وختمت بالتذكير والتنبـــيه على أنه لا بدّ من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال. [١٢٠].

٦- الاسم والضمير والتنبيه:

يســـتعمل الاسم الصريح أحياناً بدلاً من الضمير، ويكون في ذلك تنبيه على شيء معين كما في قوله تعالى: "الذي خلق سبعَ سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمـــن مـــن تفاوت. "[١٢١] فوضع مكان الضمير قولَه (خلقِ الرحمن) تعظيماً لخلقهـــن، وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت...، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب.[١٢٢].

وعلـــى العكـــس من هذا، فربما استعمل الضمير بدلاً من الاسم الظاهر لأغـــراض منها التنبيه، كما في قوله تعالى: "إنّا أنزلناه في ليلة القدر"[١٢٣] فجاء بضـــمير القـــرآن دون اســـمه الظاهر شهادة له بالنباهة، والاستغناء عن التنبيه عليه.[١٢٤].

٧- كلاّ والتنبيه:

وتدخل كلا على بعض الجمل فتفيد بدخولها - فضلا عن الردع - التنبيه على شيء معين، وفي لغة التنزيل مواضع متعددة من هذا القبيل، منها قوله تعالى: "كلا إنها لظى" (١٢٥)، فقد ذكر أن فيها ردعاً وتنبيهاً على أنه لا ينفع المجرم يوم القيامة الافتداء، ولا ينجيه من العذاب (١٢٦) ومنها قوله: "كلا إذا بلغت التراقي" (١٢٧) ففيه ردع عن إيثار الدنيا، وتنبيه على أنّ ما بين أيدينا من الموت الذي تنقطع عنده العاجلة (١٢٨) ومنها قوله: "كلا سنكتب ما يقول ونمدُّ له من العذاب مدّاً". (١٢٩) ففي كلا "ردع وتنبيه عن الخطأ أي هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه" (١٣٠) ولهذا نظائر (١٣١).

٨- النعت المقطوع:

هو أسلوب استعملته العرب في كلامها، ومنه قولك: أعنْ جارك الفقيرُ، فالفقيرُ (بالضم) كانت قبل أن تقطع نعتاً للاسم قبلها، توافقه في الحركة الإعرابية، غير أن العرب أرادت أن تنبه إلى خطر هذه الصفة وتلفت الأنظار إليها، فقطعوها عن النعتية، وجعلوها في جملة جديدة.

إن هذه الطرق والأساليب تدل على أن التنبيه في العربية عميق الغور، بعيد المرمى، وليس من اليسير أن يُجعل ضمن حدود حاصرة. وبعد:

فإنني تناولت في هذا البحث بعض القضايا التي يمكن أن تندرج ضمن وظيفة التنبيه، وكان ذلك في ضوء من لغة التنزيل، وذكرت أن الحديث عن وظائف اللغة شاع بتأثير اللسانيات المعاصرة. ورجّحتُ أن يكون مصطلح التنبيه أكثر دقة من مصطلح "الندائية" أو مصطلح "إقامة الاتصال"، كما دللت على أن للمتقدمين من أهل العلم بالعربية إشارات مبكرة، غير أنها قليلة، ولم تكن مقصودة ذاتها، وهي مع هذا مفيدة ومهمة، وقد بينتُ أن للتنبيه صلة وثيقة بالنداء ، والدعاء وأسماء الإشارة، وأمور أخرى كثيرة،منها استعمال مفردات

ذات صـــلة، ومـــنا الالـــتفات والتقديم والتأخير، والكناية.. ونخلص بعد هذا إلى النتائج التالية:

١. جـــرى التعبير عن التنبيه بكلمات ضدية مسبوقة بنفي، ففي لغة التنزيل وجدنا أن مفردات مادة (غفل) تدل على التنبيه مثلما تدل عليها المفردات التي تتصل بهذا المعنى، وربما كانت أكثر دلالة.

٢. للتنبيه في العربية مستويان، أحدهما ينصرف إلى التأثير في الحواس من سمع وإبصار... وثانيها ينصرف إلى التأثير في المدارك والقلوب.

٣. تضطلع وظيفة التنبيه بدور مهم في الخطاب الديني، ولا سيما في القرآن الكريم.

الحواشي

(١) انظـــر: علـــم اللغة في القرن العشرين (١٥٠-١٥١)، والألسنية علم اللغة الحديـــث المبادئ والأعلام (٥٣-٥٤)، ومدخل إلى اللسانيات (٤٥-٤٦)، وعلم الإشارة (٣٣).

(٢) ألسنية علم اللغة الحديث (٥٣)

(٣) السيمياء: (١٢-١٣)

(٤) هو الدكتور فتح الله صالح المصري.

(٥) اللسان ٣١٦/١٥ (ندي).

(٦) الأدوات المفيدة للتنبيه (١٩)

(٧) الكتاب ٣٢٩/٢

(٨) الكتاب: ٢١٨/٢

(٩) الخصائص: ١٩٦/٢

(١٠) شرح المفصل: ١٢٠/٨.

(١١) الكتاب ٢٢٤/٤

(١٢) الخصائص ١٩٦/٢

(١٣) سورة النمل (٢٥)

(١٤) الخصائص ١٩٦/٢

(١٥) سورة النساء (٧٣).

(١٦) انظر : الأدوات المفيدة للتنبيه (٤١-٤٢)

(١٧) صحيح البخاري، كتاب التهجد. والمغني (٤٨٨).

(١٨) انظر: الأدوات المفيدة للتنبيه (٤١)

(١٩) انظر: الأدوات المفيدة للتنبيه(٤٦)

(٢٠) المغني (٤٨٨).

(٢١) تفصيل ذلك في الأدوات المفيدة للتنبيه (٤٦-٤٧).

(٢٢) الخصائص ٢٧٨/٢- ٢٧٩.

(٢٣) البحر ١٠٣/٤.

(٢٤) شرح المفصل ٤/٢.

(٢٥) شرح المفصل ٤/٢.

(٢٦) مباحث في علم المعاني (٢٠٨-٢٠٩).

(٢٧) من أساليب القرآن (٤٣).

(٢٨) سورة هود (٤٢).

(٢٩) سورة يوسف (٤٦).

(٣٠) سورة مريم (٤٤).

(٣١) الكشاف ٨٩/١، وانظر الحاشية (١) فيه.

(٣٢) الكشاف ٨٩/١ ـ ٩٠.

(٣٣) شرح العوامل المائة (٩٥).

(٣٤) الغنية ٣/٢.

(٣٥) الكشاف ٨٩/١ ـ ٩٠

(٣٦) الغنية ٣/٢.

(٣٧) من أساليب القرآن (١١-١٢).

(٣٨) سورة ثمود (٦٨).

(٣٩) شرح المفصل ١٢٠/٨

(٤٠) سورة الإسراء (٩).

(٤١) مباحث في علم المعاني (٤٢).

(٤٢) شرح الكافية للرضى ٣٣/٢، وانظر: شرح المفصل ١٦١/١.

(٤٣) سورة البقرة (٢).

(٤٤) المغني ٤٥٦، وانظر: ص ١٦٢ منه.

(٤٥) سورة آل عمران (١١٩).

(٤٦) شرح المفصل ١١٤/٨.

(٤٧) الأدوات المفيدة للتنبيه (١٥١).

(٤٨) سورة الشعراء (٦٤).

(٤٩) المغني (١٦٢).

(٥٠) الصحاح: ذا - تا.

(٥١) الكتاب ٢١٢/٢

(٥٢) انظر: الكشاف ٨٩/١-٩٠

(٥٣) انظر: الأدوات المفيدة للتنبيه (٢٦).

(٥٤) الخصائص ٢٧٨/٢-٢٧٩.

(٥٥) البحر ٦٩/٧.

(٥٦) الصحاح: (ها)، واللسان(ها)

(٥٧) الكشاف ٣٠/١.

(٥٨) الكشاف ٣٩/٤.

(٥٩) سورة التكاثر (٣-٤-٥).

(٦٠) الكشاف ٧٩٢/٤.

(٦١) سورة الحشر: (٢٠)

(٦٢) الكشاف ٥٠٨/٤.

(٦٣) الحشر (٢٢-٢٤).

(٦٤) المعاني في ضوء أساليب القرآن (١٧٢).

(٦٥) شرح الكافية لابن مالك ١٦٥٥/٢.

(٦٦) الكشاف ١٨٠/١.

(٦٧) شرح المفصل ١٥/٨.

(٦٨) المغني: (ألا).

(٦٩) سورة الحج (٦٣).

(٧٠) الكتاب ٤٠/٣.

(٧١) الكشاف ٦٢/١-٦٣

(٧٢) سورة طه (١٧)

(٧٣) نضناضة: التي لا تثبتُ في مكانها لشرتّها، ونشاطتها.

(٧٤) الكشاف ٣-٥٧.

(٧٥) سورة الذاريات (٢٤).

(٧٦) الكشاف ١٠٤/٤

(٧٧) انظر: سورة البقرة (٧٤-١٤٠-١٤٤-١٤٩)،وسورة آل عمران (٩٩)، وسورة الأنعام (١٣٢)، وسورة هود (١٢٣)، وسورة النمل (٩٣) .

(٧٨) سورة البقرة (٨٥).

(٧٩) سورة هود (١٢٣).

(٨٠) سورة الأعراف (١٧٩).

(٨١) اللسان (غفل)

(٨٢) تفسير الطبري: ٣٦٦/١.

(٨٣) انظـــر: سورة البقرة (٧٤-٨٥)، وسورة الأنعام (١٣٢)، وسورة يونس (١٠)، وسورة الروم (٣٠).

(٨٤) اللسان: (نذر).

(٨٥) انظر: المعجم المفهرس: (نذر).

(٨٦) سورة الأنعام (١٩).

(٨٧) سورة الأحقاف (٩).

(٨٨) سورة فاطر (٢٤).

(٨٩) الكشاف ٦٠٨/٣.

(٩٠) سورة فاطر (٤٢).

(٩١) سورة يس (٧)

(٩٢) سورة يس (١٠).

(٩٣) سورة فاطر (١٨).

(٩٤) سورة الأنبياء (٤٥)

(٩٥) سورة فصلت (١٣).

(٩٦) سورة الليل (١٤).

(٩٧) سورة النبأ (٤٠).

(٩٨) انظر: سورة القمر الآية (١٤) وما بعدها.

(٩٩) المعاني في ضوء أساليب القرآن (٢١٧).

(١٠٠) العمدة (٣٣٦).

(١٠١) ديوانه (٣٤)

(١٠٢) الكشاف ١/٨٨-٨٩

(١٠٣) الكشاف ١/٨٩

(١٠٤) الكشاف ١/٨٩

(١٠٥) سورة النحل (٥١).

(١٠٦) سورة مريم (٨٨-٨٩).

(١٠٧) الكشاف ٣/٤٥.

(١٠٨) انظر: العمدة ٦٣٨، والكشاف ٢/٣، ٦١٠/٤، ٢٥٠، ٤٥/٣٢٥، ١٥.

(١٠٩) سورة آل عمران (٦١).

(١١٠) الكشاف ١/٣٦٩-٣٧٠.

(١١١) سورة ص (٢٣).

(١١٢) الكشاف ١/٨٣.

(١١٣) سورة الحج (٢٨).

(١١٤) الكشاف ١٥٣/٣.

(١١٥) الكشاف ٣٥٨/١.

(١١٦) الكشاف ١ /٣٥٩.

(١١٧) سورة يوسف (٢٢).

(١١٨) الكشاف ٤٥٤/٢.

(١١٩) سورة الزمر (٢١).

(١٢٠) الكشاف ١١٢/٤

(١٢١) سورة الملك (٣).

(١٢٢) الكشاف ٥٧٦/٤.

(١٢٣) سورة القدر (١).

(١٢٤) الكشاف ٧٨٠/٤

(١٢٥) سورة المعارج (٢٥)

(١٢٦) الكشاف ٦٦٣/٤

(١٢٧) سورة القيامة(٢٦)

(١٢٨) الكشاف ٦٦٣/٤

(١٢٩) سورة مريم (٧٩)

(١٣٠) الكشاف ٤٠/٣

(١٣١) الكشاف ٣٨١/٣، ٥٨٢-٥٨٣،٤/٧٢١.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الأدوات المفيدة للتنبيه في كلام العرب، للدكتور فتح الله صالح المصري.

٣- الألسنية علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام، للدكتور ميشال زكريا - بيروت ١٩٨٣م.

٤- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي - الرياض (بلا تاريخ).

٥- تفسير الطبري - جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر بن جرير الطبري، طبعة البابي الحلبي.

٦- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار- بيروت، الطبعة الثانية.

٧- ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة-بيروت/١٩٨٢.

٨- السيمياء، لبيير جيرو، ترجمة أنطون أبي زيد- بيروت.

٩- شرح العوامل المائة لخالد الأزهري، تحقيق بدراوي زهران- دار المعارف

١٠- شرح الكافية، للرضي الأستراباذي، طبعة مصورة.

١١- شرح الكافية لابن مالك، تحقيق الدكتور عبدالمنعم هريدي- دمشق ١٩٨٢م.

١٢- شرح المفصل، لموفق الدين بن يعيش- بيروت والقاهرة.

١٣- الصـــحاح= تـاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار- بيروت ١٩٧٩.

١٤- صحيح البخاري= فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- القاهرة ١٣٩٠هـ.

١٥- علم الإشارة، لبيير جيرو، ترجمة د. منذر عياشي- دمشق ١٩٨٨م.

١٦- علم اللغة في القرن العشرين، لجورج مونان، ترجمة الدكتور محمد نجيب غزاوي- دمشق.

١٧- العمـــدة لأبي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق الدكتور محمد قزقزان- دمشق ١٩٩٤.

١٨- الغنية، للشيخ عبدالقادر الجيلاني-دمشق (بلا تاريخ).

١٩- الكـــتاب، لســـيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبدالسلام هارون - بيروت .

٢٠- الكشـــاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، ووجوه التأويل ، لمحمود الزمخشري- إيران.

٢١- اللســـان - لســـان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن جلال الدين- بيروت .

٢٢- مباحث في علم المعاني للدكتور طاهر الحمصي - حمص ١٩٩١م.

٢٣- مدخل إلى اللسانيات، للدكتور رضوان قضماني- حمص ١٩٨٨م.

٢٤- المعانـــي فـــي ضـــوء أساليب القرآن، للدكتور عبدالفتاح لاشين- القاهرة ١٩٧٦م.

٢٥- المعجـــم المفهـــرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد حسن الحمصي- دمشق ١٩٨٤م.

٢٦- من أساليب القرآن، للدكتور إبراهيم السامرائي- بيروت ١٩٨٧م.